من وحى رمضان :

... عندى يطعمنى ويسقينى

للأستاذ طه عبد الباقى سرور

التصوف الاسلامى عندى ، هو عبادة لله على مشاهدة ، ومعرفة للحقائق على بصيرة ، وتذوق للمعانى بالروح والقلب والوجدان ، وحاسة فوق الحواس الخمس ، ترفرف وتحلق وترتاد آفاقا محجوبة عن العالمين ، حاسة يهبها الله لعباده الذين ارتضى واصطفى ، والذين سبقت لهم منه الحسنى .

هو تجربة حسية ومعنوية ، كتلك التجربة التى يصورها لنا ، حارثة الانصارى حينما سأله الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « وكيف أصبحت يا حارثة ؟ قال : أصبحت مؤمنا حقا ! فقال : يا حارثة : ان لكل حق حقيقة . فما حقيقة ايمانك ؟ .. فقال : يارسول الله ، عزفت نفسى عن الدنيا فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى ، وكأنى أنظر الى عرش ربى بارزا ، والى أهل الجنة فى الجنة يتزاورون ، والى أهل النار فى النار يتعاوون ويبكون ، فقال صلوات الله عليه : عرفت فالزم ، عبد نور الله بالايمان قلبه » ..

انه النور الذى ينفسح به الصدر وينشرح ، وتتكشف به الحقائق وتتضح ، وانها المعرفة التى تجتاز حق اليقين ، الى عين اليقين ..

أو كما قال المربى الصوفى الشيخ يوسف النساج ، للامام الغزالى ، وهو يسلك به الطريق الصوفى الى الله : « ياأبا حامد هذه ألواحنا فى البداية ، بل ان صحبتنى ستكحل بصيرتك بالمد التأييد ، حتى ترى العرش ومن حوله ، ثم لا ترضى بذلك حتى تشاهد ما لا تدركه الابصار ، فتصفو من الاكدار طبيعتك ، وترقى على طور عقلك ، حتى تسمع الخطاب من الله تعالى كموسى : « انى أنا الله رب العالمين » .

وبتلك المعرفة المبصرة ، وبتلك العبادة المشاهدة . عاش المتصوفة حياتهم فى معية ربهم ومولاهم ..

وحول تلك المعية ، رفرفت أذواقهم ، ودندنت ألحانهم ، وانبثقت مواجيدهم ، وترقرقت معارفهم وعلومهم وآدابهم وسلوكهم ..

كان ورد سهل بن عبد الله التسترى ، الذى يردده صباح مساء ، ثلاث

كلمات : « الله معى ، الله ناظر الى ، الله شاهد على » .. وكان سهل يجتاز حروف هذه الكلمات الى حقائقها ومعانيها، فتشع بالنور جوارحه ، ويخفق بالخشوع قلبه ، وتتدفق الرهبة والمحبة والمراقبة فى حسه ووجدانه .. فلا يرى الا الله .. ومن كان هذا حاله ، غدت نبضاته وخفقاته ، وسبحاته وخواطره ، فى الأفق الاعلى ، وفى المعنى الاسمى ..

ويقول الشيخ الاكبر ، محيى الدين بن عربى : « دخلت الخلوة بورد سهل ففتح لى ، حتى رأيت من الاذواق والاسرار والمشاهد ، ما يضيق عنه نطاق التعبير » .

وكان الشاعر الصوفى العالمى ، محمد اقبال يقول : « سر حياتى كلمة علمنى اياها أبى فى طفولتى .. قال : يابنى . اقرأ القرآن وكأنه أنزل عليك » .

ويقول الامام الجنيد : « شرط قراءة القرآن عندنا أن نقرأ وكأن الله يستمع الينا ، أو أن نقرا وكأن الله يتلو على لساننا » .

وحينما سئل ذو النون المصرى عن الصوفية ؟ قال : « قوم آثروا الله عز وجل على كل شىء ، فآثرهم الله عز وجل على كل شىء » .

ومن هنا كان التصوف الاسلامى ، يمثل تصورا خاصا للحياة ، وذوقا خاصا فى تناول العبادة والايمان ، ووجها خاصا ، فى الاعمال والسلوك .. لأنه يقيم علاقة دائمة متصلة بالله ، وبرسوله ، علاقة روحية وجدانية تذاق وتدرك بالقلب والروح ، وتنبثق منها المقامات والاحوال ، كما تستمد منها المعارف والالهامات ، وتتلون بها المشاهد والصفات ..

انهم فى معية الله أبدا ، لأن الله مع الذين اتقوا ، والذين هم محسنون ، « وهو معكم أينما كنتم » وبالتالى هم أيضا فى معية رسول الله صلوات الله وسلامه عليه .

ومعية الرسول لدى المتصوفة ، ليست موقوتة بزمن ، ولا محدودة بوقت ، لانها مطلقة تبعا للرسالة الجامعة .

« محمد رسول الله والذين معه » ما صفتهم وما هى أعمالهم ؟ « تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » فكل من آمن برسول الله ، وعمل برسالته ، وأخلص فى طاعته .. واقتدى بهديه ، وفنى فى محبته ، فهو معه صلوات الله عليه ، سواء تقارب زمنه أو تباعد ، صحبه فى حياته ، أو صحبه فى سيرته وأعماله .

فمن استغرق فى منهج الرسول ورسالته فهو معه حسا ومعنى ، والعبرة بالشعور والاحساس ، وانفساحا ت القلب ، وانطلاقات الروح .

والاحساس بهذه المعية المحمدية ، والاحساس بالمعية الربانية ، هو جوهر التصوف ولبه ، وروحه وقلبه ..

والاحساس بهذه المعية ، هو سر هذا التسامى الصاعد ، والحياة الكاملة المثالية ، التى يعيشها رجال التصوف .

وهذه المعية ، هى ضمير الصوفى ، وهى قانونه ، وهى مقامه وحاله ، ونجواه وسره ، ومن هنا يقول الصوفى : انه قائم بالله ، وانه يسير بالله ، ويتحرك بالله ، ويجاهد فى الله ، ويستغرق بكليته فى الله ، استغراقا معنويا روحيا شعوريا ..

لقد عاش المتصوفة حياتهم فى الأفق الاعلى ، عاشوا عند ربهم ، ومع ربهم ، أو كما يقول نبينا الاعظم صلوات الله وسلامه عليه : « أبيت عند ربى يطعمنى ويسقينى » طعاما معنويا ، وشرابا ذوقيا .

ان هذا الشعور الصوفى ، وهذه المعية الذوقية الصوفية ، هى المثل الاعلى للصائم ، وهى الهدف المنشود من فريضة الصيام .

ولا يؤمن أحدكم كما يقول رسولنا الاعظم ، حتى يكون هواه ، تبعا لما جئت به » . « ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » . « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا » . « ولمن خاف مقام ربه جنتان » . جنة فى الدنيا ، وجنة فى الاخرى .

والحياة الطيبة الكاملة ، وجنة الدنيا العالية ، هى حياة الصائم القائم ، الذاكر القانت ، المعلق قلبه بالله ورسوله ، المراقب لله ورسوله ..

لقد جاءت فريضة الصيام ، لترتفع بنا الى الافق الصوفى ، الى الافق المثالى ، انها نفحة من الله مباركة ، وهبة من الله زكية طيبة ، ونسمات من الرحمة سابقة شاملة ، وأنوار من القدس ساطعة مشرقة ، فمن مر به رمضان ولم يتذوقها ويحياها ، فقدصدق عليه قول رسول الله صلوات الله عليه : « رغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثم انسلخ قبل أن يغفر له »

فليكن هوانا فى رمضان تبعا لما جاء به رسول الله ، ولتكن حياتنا فى رمضان أشبه ما تكون بحياة رسول الله ، ولتكن عبادتنا ، عبادة قلب وروح ووجدان وضمير وشعور ومراقبة ومشاهدة ، فقد جاء القرآن لينذر من كان حيا ، أى حياة القلب والضمير والحس : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، وما يتذكر الا من ينيب » .

وعن عبد الله بن مسعود رضوان الله عليه : « اطلب قلبك فى أربعة مواطن .. عند سماع القرآن ، وفى مجالس الذكر ، وفى أوقات الخلوة ، وفى أيام رمضان ، فان لم تجده فى هذه المواطن ، فسل الله أن يمن عليك بقلب ، فانه لا قلب لك » .

ان الهدف من فريضة الصيام ، أن يتذوق الصائم فى أيام معدودات ، حياة الابرار الاطهار ، الاصفياء المقربين ، حياة الملأ الاعلى ، حيث لا رفث ولا فسوق ولا جدال ، ولا معصية حسية أو معنوية ، باطنة أو ظاهرة ، من خائنة الاعين ، أو مما تضم الجوارح والصدور .

أما الامساك عن الطعام والشراب ، فانه أهون عند الله ، وعند المؤمنين الصادقين ، مما يهدف اليه شهر رمضان ، وفريضة الصيام ، انه الثوب والقشر ، أما الجوهر والسر ، فهو أدب النفس ، وتزكية الحس ، وطهارة القلب ، واشراق الروح ، وعمل الخير ، وبذل المعروف ، ومجاهدة الدنيا . والارتفاع فوق ما فيها من بريق واغراء ، وفتن وأهواء ، وأن يظل اللسان رطبا بذكر الله . والقلب خاشعا لله ، والجوارح فى عبادة وطاعة متصلة ، مشرقة ، تراقب مولاها وتناجيه ، وتعيش عنده ، وتقتات بأنواره ، وتشرب من عطاياه .. وتفنى فى رضوانه وهداه .

وكما علمنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه : « من لم يدع قول الزور والعمل به ، فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » : « ورب صائم ليس له من صيامه الا الجوع والعطش ، ورب قائم ليس حظه من قيامه الا السهر »

وصلوات الله على رسولنا اذ يقول : « ليس الصيام من الاكل والشرب ، وانما الصيام من اللغو والرفث ، فان سابك أحد أو جهل عليك فقل : انى صائم .. انى صائم »

انى صائم .. هذا هو الشعار المقدس للصائم ، لقد صام عن الدنيا التى تعرفها ، صام عن كل ما يشين حياة الملأ الاعلى ، صام لمولاه صياما روحيا قلبيا تعبديا زكيا نقيا ، ولهذا قال رسولنا صلوات الله عليه : « من صام رمضان ايمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال ربنا سبحانه وتعالى : « كل عمل ابن آدم له ، الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به » .

ان هدف الصيام هو التقوى : « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » ، وهذه أولى درجات التقوى عند المتصوفة الذائقين

وفى الحديث القدسى عن الله سبحانه وتعالى : « ياعبادى انما هى أعمالكم

أحصيها لكم ، ثم أوفيكم اياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك ، فلا يلومن الا نفسه » .

وفى الصحيح : ان رجلا جاء الى رسول الله يشكو قسوة قلبه ، فقال له : امسح رأس اليتيم ، واطعم المسكين » ..

وعن زيد بن ثابت : ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كانت الدنيا همه ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا الا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة همه ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه فى قلبه ، واتته الدنيا وهى راغمة » .

ومن وصايا جبريل لسيدنا محمد : « اعلم أن شرف المؤمن قيام الليل وعزه استغناؤه عن الناس » .

وسئل الحسن البصرى : « لم كان المتهجدون أحسن الناس وجوها ؟ .. فقال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره » .

وكان أبو سليمان الدرانى يقول : « أهل الليل فى ليلهم ألذ من أهل اللهو فى لهوهم ، ولولا قيام الليل ما أحببت البقاء فى الدنيا » ..

فلنجعل رمضان قياما بالليل ، وطاعة بالنهار ، طاعة مضيئة مشرقة .. رحيمة عادلة ، زكية طاهرة ، عامرة بنفس الرحمن وحبه ، وهداه ورضاه ..

فلتكن حياتنا ، حياة ربانية ، حياة صوفية ، تراقب الله ورسوله .. وتعيش مع الله ورسوله ، وتقتات من رضوان الله وهداه ، وتشرب من ريه وعطاياه .. مع المعية الربانية فى المراقبة والمشاهدة ، ومع المعية المحمدية ، فى المناجاة والطاعة .. وتلك بداية التصوف عند أصحاب الحس .. كما هى نهايته عند أصحاب الذوق ..

« طه عبد الباقى سرور »